على أطراف المدينة

ينامون حولها كأنها مقام أحد الأولياء راقداً وسط الغرفة، تفوح منه رائحة الدفء والسكينة فيبدو تسامرهم حولها في ليالي الشتاء الباردة كالذكر، وتبقى عيونهم عليها مثبتة وهم رقود حتى يغلبهم النعاس. كانت كفرد من أفراد الأسرة.. يعتبرها الأب طفله الرابع، وهم يعتبرونها لعبتهم الكبيرة.. ينتظرون أباهم عائداً في المساء يدفعها أمامه فيجرون ويتحلقون حوله .. ويتسابقون لدفعها معه حتى تدخل من باب حجرتهم الصغيرة لتستقر بشموخها في الوسط تماماً .. ويمد الأب يده في تجويفها الدافئ ويخرج لأطفاله أكواز البطاطا الساخنة فيلتهمونها كالأفراخ الجائعة .. وهو ينظر لهم بسعادة مريحة تزيل شقاء النهار .. ويرتمي على أريكته ماداً ساقيه أمامه .. دون أن يحول نظره عنهم وهم جالسون بجوار العربة في محيطها الدافئ.

تأتي زوجته بإناء الماء الساخن ليضع قدميه فيها..و تدلكهما له. يسألها وهو مطمئن لإجابة سترضيه "العيال عاملين إيه؟! فتجيب ببساطة: "عفاريت"، فيبتسم ويخرج من جيبه حصيلة اليوم ويعطيها لها.. فتدسها في صدرها وتدعو له: يخليك لنا. تتنقل عيناه بينها وبين صغاره المنشغلين بالبطاطا والعربة حتى يغلبه النوم وقدميه مازالتا في رحم كفيها تجلو عنهما التعب..حتى تلحظ نومه ويتعالى شخيره..فتستمر دقائق في مداعبة قدميه برفق..ثم ترفع ساقيه .. وتعدل جسده على الأريكة..ينتبه لهذا لكنه لا يستيقظ مستسلماً ليديها تقلبه وتعدله وتغطيه كبقية الأطفال .. وينام مستغرقاً. وتدريجياً يسكن صخب الصغار بعد نومه.

تضمهم الأم حولها تنفض التراب عن ثيابهم .. وتمسح أفواههم بيدها.. وتسأل أصغرهم "حلوة البطاطا..؟" فيجيبها ببراءة: قوي ياما. فتتذوق قطعة صغيرة جداً عالقة على شفتيه الضاحكتين.. وتقول "عسل.." وتأخذهم جميعاً في حضنها.. يطلب الصغير حدوتة قبل النوم.. يتهكم إخوته الكبار قليلاً عليه .. لكنهم لا يبرعون كثيراً في مداراة شوقهم لسماع الحكاية .. فتحكي الأم .. وينام الصغار.. تطفئ نور الغرفة .. وتبقى وحيدة ساهرة مع مصباح صغير سهاري.

تجلس ثانية عند قدمي زوجها.. وتضع يدها برفق على كعب قدمه المتورم، وتنفلت دمعة من عينيها كانت قد كتمتها تسقط على الكعب .. ومازالت كاتمة أنينها حتى لا توقظه وهي تعلم أنه أيضاً يكتم نفس الأنين ليس اليوم فقط .. بل لسنوات طوال.. كان طفلهما الأصغر يشبهه .. حتى أنه ورث عنه نفس الشفاه المكتنزة والغمازة على الخد الأيمن .. والطبع الكتوم.

كان الأب منذ صغره يخرج مع أبيه يجوب الطرقات صيف شتاء .. يبيعان التين الشوكي صيفاً .. فإذا هل الشتاء .. لف الشال حول رقبته وارتدى ملابس أثقل .. ووضعا الفرن على العربة ليجوبا نفس الطرقات ببضاعتهم الساخنة .. عاش منذ طفولته على أطراف الحياة .. ليلها ونهارها .. صيفها وشتائها .. يبيع لأغنيائها نهاراً ليكسب أكثر .. ويبيت ليله في الطرف الأفقر من المدينة..

هكذا طوال الوقت.. لم تتحرك عقارب ساعة في الحجرة .. ولم يُسمع صوت دقات .. لا توجد آلة تدل على الوقت يحتاجونها .. فالزمن لا يهم من يعيشون على أطراف المدن .. فالحياة لا تمر عليهم سوى بالفتات الذي لا يحتاج منهم لوقت طويل فلم يعودوا يعرفون أعمارهم .. هذا ما تربوا عليه .. فالمذياع يعلنها لهم ليل نهار.. "بتوقيت القاهرة .. وعلى المقيمين خارجها مراعاة فروق التوقيت" فأراحوا أنفسهم منه.

نظرت الأم لأطفالها متكومين على السرير .. ارتجفت رجفة أم محبة فكرت في المستقبل .. فأراحت نفسها برؤية حقائبهم المدرسية في ركن الغرفة تحت المصباح الصغير .. فمسحت دمعة أخرى فرت على قدم

زوجها النائم .. وربتت على كعبه بحنو وغطت قدمه ثانية، ثم نامت لما أسندت رأسها للجدار.